Journal Of the Iraqia University (73-3) January (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

نظريات في الأدب المقارن والتنوع الثقافي

الباحثة: وفاء ياسر جاسم

الإيميل: Vafa.yaser1978@gmail.com

الأستاذ المشارك: الدكتور حسن مقياسي

الإيميل: h.meghyasi@yahoo.com

الأستاذ المساعد: الدكتور رسول دهقان ضاد

r.dehghanzad@qom.ac.ir

جامعة قم كلية الأدب العربي

Theories in Comparative Literature and Cultural Diversity

Researcher: vafa Yaser Jasem
Qom University, Faculty of Arabic Literature

المستخلص

تناقش المقالة التحولات التي طرأت على الأدب المقارن بفعل العولمة والتفاعل الثقافي، مسلطة الضوء على تأثير ظهور تخصصات جديدة كالدراسات الثقافية ودراسات الترجمة في إعادة تشكيل هذا المجال وتوسيع آفاقه. تستعرض مساهمات مفكرين غربيين مثل سوزان باسنيت وستيفن توتوسي في صياغة توجهات حديثة، إلى جانب آراء باحثين عرب كحسام الخطيب وعز الدين المناصرة، الذين أكدوا على تحديات الأدب المقارن عربياً وضرورة تحديث مناهجه. وتختتم المقالة بالتأكيد على أهمية الحفاظ على هوية الأدب المقارن مع الانفتاح على تخصصات أخرى لتعزيز الفهم الإنساني المشترك.الكلمات المفتاحية: النظريات، الأدب المقارن، التنوع الثقافي، العولمة، الدراسات الثقافية.

Abstract

The article examines how globalization and cultural interaction have reshaped comparative literature through disciplines like cultural and translation studies. It highlights contributions from Western scholars and Arab researchers addressing challenges and modernizing methodologies. The study emphasizes preserving the field's identity while embracing interdisciplinarity to enhance understanding of human experiences Keywords: Theories, Comparative Literature, Cultural Diversity, Globalization, Cultural Studies.

تمهيد:

من المسلم به اليوم أن من أهم عوامل ازدهار أي حضارة احتكاكها بالحضارات الأخرى واستفادتها منها؛ فمنذ القدم دأبت الثقافات المختلفة على إثراء بعضها بعض. وأخذت العلاقة بين الثقافات أشكالا متنوعة مثل المحاكاة والترجمة والتأثر والتأثير والمثاقفة، وكذلك الغزو والتهجين والهيمنة. ومن الصعب اليوم أن نتصور وجود ثقافة ما تطورت بمعزل عن الثقافات الأخرى. ومن الملاحظ كذلك أن الانحطاط كان مصير أي حضارة حاولت أن تتكفئ أو تنغلق على نفسها. وإذا كانت العلاقات بين الثقافات قد نشأت منذ القدم فلا شك أن العولمة، بفضل تطور وسائل الاتصال والتكنولوجيا وارتفاع عدد الناس الذين ينتقلون من قطر إلى آخر، قد قربت أكثر بين الثقافات وضاعفت من الأبعاد المستعارة أو العالمية، التي تحتويها كل ثقافة.[1] وبما أن أي ثقافة تحتوي على عناصر أصيلة وعناصر مستعارة من الثقافات الأخرى فليس من الممكن دراسة مختلف المكونات الثقافية لحضارة ما إلا من خلال مقارنتها بالمكونات الثقافية الموجودة في الثقافات الأخرى التي احتكت بها في مرحلة ما من تاريخ تطورها. لهذا

بعد أن انتهى عصر الاكتشافات الجغرافية وتمكن العلماء من الاطلاع على ما لدى الشعوب الأخرى من معطيات ثقافية وعلمية تختلف عما لديهم بدأوا يشعرون بالحاجة إلى دراسة معارفهم من خلال مقارنتها بما لدى الآخرين وشرعوا منذ منتصف القرن التاسع عشر في استخدام المقارنة بشكل واسع في كثير من مجالات المعرفة،[٢] فظهر علم الأديان المقارن وعلم اللغة المقارن وعلم التشريح المقارن والقانون المقارن والتربية المقارنة والأدب المقارن، وغيرها من العلوم المقارنة. وبسبب ارتفاع مستوى تداخل الثقافات في هذا العصر عصر العولمة – بات من المستحيل دراسة أي ثقافة خارج إطار المقارنة. فاليوم يمارس السياسيون وعلماء الاقتصاد والتاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا والنقاد المقارنة الثقافية وذلك بهدف الكشف عن مميزات كل ثقافة ودرجة تداخلها مع الثقافات الأخرى. وبما أن المقارنة أصبحت قدر أي دراسة علمية جادة فقد سعت كثيرا من الدول إلى تضمين مناهجها التعليمية أبعادا عالمية مقارنة من مرحلة التعليم الثانوي. ففي سنغافورة وكندا مثلا أدخلت كليات إعداد المدرسين أبعادا تربوية مقارنة في خططها الدراسية وذلك بهدف تدريب المدرسين على تنمية فهم العالم لدى الطلاب وتدريبهم على ممارسة المقارنة الثقافية وتقدير حجم التشابهات والاختلافات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العالم.[٣] ومن ناحية أخرى، أفرز التطور التكنولوجي وثورة وسائط الاتصال المختلفة والمستجدات السياسية والاقتصادية التي شهدها العالم في الجزء الأخير من النصف الثاني القرن العشرين تحولات معرفية ومنهجية جذرية في مجال العلوم الإنسانية بما فيها الدراسات الأدبية بشكل عام والأدب المقارن بشكل خاص. ولا شك أن المتأمل في واقع الأدب المقارن اليوم يلمس قلقا متزايدا بشأن مستقبل هذا التخصص في ظل تلك المتغيرات. فعلى الرغم من أن الأدب المقارن قد اكتسب شرعيته الأكاديمية منذ أكثر من مئة وثلاثين عاما،[٤] وعلى الرغم من الإنجازات المهمة التي حققها الباحثون في مجال الأدب المقارن الذي يعد اليوم من أهم مرتكزات نظرية الأدب والنقد الأدبي، والذي بات يتصدى لميادين بحثية معاصرة، مثل صورة الآخر والاستشراق والمثاقفة وخطاب ما بعد الكولونيالية[٥] ودراسات الترجمة، فقد شهد عقد التسعينيات من القرن العشرين طرح عدد من التساؤلات حول أهداف هذا التخصص وطبيعة مناهجه وعلاقاته بالأنظمة المجاورة، بل وجدوى وجوده بوصفه أحد الفروع الرئيسة للدراسات الأدبية. ونجد صدى لهذه التساؤلات في كتابات عدد من المقارنين الغربيين مثل ستيفن توتوسي، وسبيفاك جاياتري، وسوزان باسنيت التي تحدثت عن موت الأدب المقارن. ويرى بعض المقارنين العرب، مثل د. محمد مدني ود. أحمد عبد العزيز ود. حسام الخطيب ود. عز الدين المناصرة، في التحديات الجديدة التي يواجهها الأدب المقارن منذ عقد التسعينيات من القرن الماضي أزمة جديدة، وقاموا بتقديم آراء وتصورات نظرية ومنهجية جديدة لمستقبل الأدب المقارن في الجامعات العربية تتلاءم مع طبيعة العصر الذي تتقلص فيه مختلف أنواع الحواجز وتتداخل فيه الثقافات.[٦] في إطار اهتمامنا بما يعتمل في مجال تخصصنا، ولكي نسهم في إعادة النظر في مقررات الأدب في كليات الآداب، سنقوم بدراسة لـ (تحولات الأدب المقارن نتناول فيها بعد أن نضع في المقدمة أزمة الأدب المقارن (الثانية) في سياق الأزمة التي تمر بها الدراسات الأدبية والدراسات الإنسانية بشكل عام بعض الملامح الجديدة للأدب المقارن كما تبرز في كتابات اثنين من أبرز المقارنين الغربيين المعاصرين: سوزان باسنيت وستيفن توتوسي. ثم سنقوم بقراءة نقدية للتصورات التي تضمنتها كتابات د. حسام الخطيب ود. عز الدين المناصرة بشأن تحديد المناهج والمهام الجديدة للأدب المقارن في عصر العولمة. ومن خلال تلك القراءة سنحاول في نهاية الدراسة أن نبرز النقاط التي تلتقي عندها كتابات أولئك المقارنين العرب والتي يمكن أن تشكل مرتكزا مقبولا لمقرر الأدب المقارن في الجامعات العربية.

أولا – تحولات الأدب المقارن عالميا:

أ– دور سوزان باسنيت في بروز أزمة الأدب المقارن الثانية:من المعلوم أن الأدب المقارن قد واجه أزمة حادة في مساره في نهاية العقد الخامس من القرن العشرين،[٧] وقد أفضت تلك الأزمة إلى نشأة الاتجاه الأمريكي (أو النقدي) في الأدب المقارن، الذي وسع ميادين البحث في الأدب المقارن وضمنها دراسات التوازي ومقارنة الأدب بالفنون والمعارف الأخرى.[٨] وفي مطلع العقد الأخير من القرن العشرين واجه الأدب المقارن أزمة ثانية، كان من أهم أسبابها بروز بعض أنواع الدراسات المزاحمة والمنافسة له. ومن أبرز تلك الدراسات التي استطاعت أن تخترق الأدب المقارن وتعصف به دراسات الترجمة والدراسات الثقافية.فعلى الرغم من الإنجازات المهمة التي حققها الباحثون في مجال الأدب المقارن الذي يعد اليوم من أهم مرتكزات نظرية الأدب والنقد الأدبي، والذي بات يتصدى لميادين بحثية معاصرة الاستشراق والمثاقفة وخطاب ما بعد الكولونيالية ودراسات الترجمة، والصورة، والميديا، فقد شهد عقد التسعينيات من القرن العشرين طرح عدد من التساؤلات حول جدوى الأدب المقارن. وأبدا بعض المتخصصين الغربيين في الأدب المقارن غضبهم حينما ظهرت بعض دراسات النقد الثقافي تناولت ظواهر مثل الأدب الشعبي والأساطير، سبق للأدب المقارن أن درسها بالأسلوب نفسه وقبل أكثر من مئة سنة. ولم تنتشر تلك الأزمة جغرافيا بشكل متساو في مختلف أنحاء العالم؛ فعلى المستوى المؤسساتي، يبدو أن الأزمة كانت أقل حدة في قارة أوروبا مقارنة بما حدث في الولايات المتحدة وكندا، وإلى حد ما في بريطانيا. وعلى آية حال، بات معظم المقارنين في مختلف أنحاء العالم يشعرون أنهم أمام تحديات وخيارات صعبة تفرض عليهم وضع استراتيجيات وتصورات

جديدة ودقيقة لتخصصهم.ويبدو أن نقطة البداية للأزمة الثانية للأدب المقارن تعود إلى ما كتبته الأستاذة البريطانية سوزان باسنيت في كتابها الأدب المقارن: مقدمة نقدية، (١٩٩٣)، الذي رفضت فيه الانحياز للأدب المقارن التقليدي، واقترحت نموذجا جديدا للدراسات المقارنة يعيد النظر في ميادينه وأسئلته الرئيسة، ويهتم بقضايا الهوية الثقافية والمعايير الأدبية، والتأثيرات السياسية والثقافية في الأدب. كما رفضت بشكل قاطع عزل الأدب عن سياقه التاريخي كما دعا إليه البنيويون وأنصار المدرسة الأمريكية عند بروزها في خمسينيات القرن العشرين. ولاحظت سوزان باسنيت أن هناك تراجعا نسبيا للدراسات المقارنة في الغرب، ورأت أن ذلك التراجع قد تزامن مع ازدهارها في بعض المناطق الأخرى من العالم، ومع انتشار دراسات الترجمة والدراسات الثقافية.[٩] وقد ضمنت باسنيت الفصل الخامس من كتابها، الذي يتناول العلاقة بين الأدب المقارن والدراسات الثقافية، جملة مثيرة للجدل وكثيرا ما تم الاستشهاد بها؛ فهي تقول إن "الأدب المقارن يعد اليوم في إحدى صوره ميتا"، مبينة أنها تقصد الأدب المقارن في شكله التقليدي، إذ أنها تؤكد أن الأدب المقارن لا يزال موجودا في أشكاله الجديدة وبمظاهر ومسميات مختلفة، مثل دراسات الترجمة، والدراسات الثقافية، ودراسات ما بعد الاستعمار.[١٠]و انحازت سوزان باسنيت أستاذة دراسات الترجمة في جامعة لندن، في نهاية كتابها الأدب المقارن، مقدمة نقدية لدراسات الترجمة، واختتمت كتابها بفصل أسمته من الأدب المقارن إلى دراسات الترجمة، دعت في نهايته إلى جعل الأدب المقارن تابعا الدراسات الترجمة، وليس العكس، إذ تقول: "لقد ولت أيام عظمة الأدب المقارن بوصفه دراسة أكاديمية، وغيرت أبحاث المثاقفة التي أجريت في إطار دراسات المرأة ونظرية ما بعد الاستعمار والدراسات الثقافية وجه الدراسات الأدبية بصفة عامة، وينبغي علينا من الآن فصاعدا أن ننظر إلى دراسات الترجمة بوصفها الدراسة الأكاديمية الرئيسة، وإلى الأدب المقارن بوصفه فرعا قيما من مجالات الدراسة داخلها".[١١]وبالنسبة لنا، إذا كنا نرى أن التساؤل حول أزمة الأدب المقارن أو موته ينطوي على نوع من المبالغة، فنحن بالمقابل، نعتقد أنه من المشروع، بل ومن الواجب علينا أن نسأل أنفسنا عن مدى مواكبة تخصصنا للتطورات الكبيرة التي شهدها العالم في مختلف نواحي الحياة، واستعداده لها. بعبارة أخرى، هل يزال الأدب المقارن داخل حركة التاريخ ؟وفي الحقيقة، تبين المؤتمرات التي ينظمها المقارنون بشكل دوري، وطنيا ودوليا، وكذلك المناقشات التي تدور في تلك المؤتمرات، بعد الأدب المقارن عن الموت، بل أنها تدلل على حيويته. لكن هذا لا ينفي أن تخصصنا مثل معظم مجالات العلوم الإنسانية الأخرى يواجه في هذا العالم المتغير الذي بات يربط بين البحث العلمي وعائده المادي المباشر، كثيرا من الصعوبات المتعلقة بميادينه ومناهجه و موقعه داخل المؤسسات الجامعية والبحثية، التي علينا أن نشخصها ونعرفها جيدا، ومن ثم نعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها.وقد أثار كتاب سوزان باسنيت عند صدوره في مطلع تسعينيات القرن الماضي موجة واسعة من الغضب بين أوساط المقارنين الذين رأوا أن باسنيت، على الرغم من منطلقاتها الإصلاحية، لم تكن مدركة تماما للعديد من المتغيرات التي كانت تعتمل في إطار الأدب المقارن في معظم الأقطار الغربية في ذلك الحين، وركزت فقط على المتغيرات التي برزت في بعض دول العالم. وفي أثناء الحلقة النقاشية التي نظمت حول الأدب المقارن في منعطف القرن ١٩٩٤)، قدم الأستاذ تشارلز بير نهايمر، رئيس جمعية الأدب المقارنة الأمريكية مقترحين يدعو في الأول منهما إلى تجاوز المركزية الأوروبية والشروع في الاهتمام بمختلف التصورات القادمة من مختلف أصقاع العالم، مثل تلك التي قدمها إدوارد سعيد وسبيفاك، ويؤكد في الثاني على ضرورة تحويل بؤرة الدراسات المقارنة إلى الثقافة بشكل عام، وعدم حصرها في الأدب.

ب – تجليات أزمة الأدب المقارن الثانية في كتابات ستيفن توتوسي أما ستيفن توتوسي، الذي كان من أبرز أساتذة الأدب المقارن في الولايات المتحدة قبل أن يصبح أبرز منظري النقد الثقافي المقارن، فقد أسهمت كتاباته في رفع حدة الجدل حول الأدب المقارن، وذلك حينما دعا صراحةً إلى الانتقال من الأدب المقارن إلى الدراسات الثقافية. فهو أكد، في دراسة له حول الأدب المقارن والدراسات الثقافية التطبيقية، ١٩٩٤)[١٢] أن الأدب المقارن يتضمن في الحقيقة عددا كبيرا من الميادين التي يدخلها دعاة النقد الثقافي ضمن دراساتهم. ويرى أن مسار الدراسات النظرية والتطبيقية التي أنجزت حتى اليوم في إطار الأدب المقارن تبين أن هذا التخصص – الذي يتقاطع ويتداخل مع عدد من العلوم الإنسانية الأخرى – يتضمن في ميادين بحثه المتعددة والمتنوعة، وفى مكوناته المنهجية التي يتم رفدها باستمرار مما يستجد من طرق للبحث والتحليل، ما يؤهله لدراسة مختلف التجليات الأدبية والثقافية لأي مجتمع، وكذلك الحوار بين الثقافات أو المثاقفة ، والعلاقة بين الأدب ومختلف العلوم الإنسانية. ومن المعلوم أن الدكتور عبد الله الغذامي قد اعترف أن النقد الثقافي لا يرى حرجا في توظيف التقنيات نفسها التي استخدمها النقد الأدبي للوصول إلى استنتاجات جديدة وبلورة وجهات نظر مختلفة عن تلك التي توصل إليها النقد الأدبي. لكن هذا لا يعني بالطبع أن النقد الثقافي الذي – بعكس الأدب المقارن – يُمارس أحيانا في إطار لغوي واحد لا يسعى إلى بلورة مفاهيم (كمفهوم النسق) ومرتكزات نظرية وطرق جديدة للتحليل.[١٣] وفي الوقت الذي يقر فيه توتوسي بالصعوبات الجمة التي تواجه الأدب المقارن عالميا، فهو يعترف بالمقابل بأهمية الدراسات الثقافية، ورأى أنها اكتسبت مكانة مرموقة وأوسع من مكانة الأدب المقارن في المستويين الثقافي والمؤسساتي في الولايات المتحدة الأمريكية. لهذا قرر استكشاف إمكانية

تطوير منهج جديد يجمع بين خصائص الأدب المقارن وبين سمات النقد الثقافي، واقترح أن يسميه "الدراسات الثقافية المقارنة comparative cultural studies" .[١٤] وقام بتحوير المبادئ العشرة التي قدمها في كتابه الأدب المقارن النظرية والمنهج والتطبيق (١٩٩٨)، وذلك بهدف تمكين الأدب المقارن من مواكبة المتغيرات التي أفرزتها العولمة، وجعل منها الأسس التي ينبغي أن تنهض عليها الدراسات الثقافية المقارنة التي يعرفها بأنها "مقاربة سياقية تتناول الثقافة بمختلف مكوناتها وآليات إنتاجها. ويرتكز إطارها النظري والمنهجي على مجموعة من المبادئ المستعارة من الأدب المقارن والدراسات الثقافية، ومن مجموعة الأسس المرتبطة بالبنائية (constructivism) ونظريات الاتصال والأنظمة والثقافة والأدب. وتهتم الدراسات الثقافية المقارنة، التي عادة ما تركز على كيفية تكوين الظاهرة أو النص أكثر من اهتمامها بالمحتوى أو الموضوع بالجوانب التطبيقية إلى جانب المنطلقات النظرية والمنهجية". ومما لا شك فيه أن اعتماد الدراسات الثقافية المقارنة على المقاربات التجريبية "الممنهجة systematic and empirical واهتمامها بالسياق – بمختلف مكوناته البرجماتية والأيديولوجية والسياسة والثقافية – تفرضها في الواقع الرغبة في التركيز على آليات أنتاج النص أكثر من العناية بشكله أو محتواه. كما أن ذلك الاهتمام يتطابق بالطبع مع تراجع المناهج النقدية التي كانت ترتكز على البنيوية " .[١٥] ومن المؤكد أن هناك عددا من المقارنين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا وأقطار أمريكا اللاتينية قد ساروا في الطريق نفسه الذي اختاره ستيفن توتوسي للأدب المقارن، وسارعوا في تحويل أقسام الأدب المقارن في جامعاتهم أو مراكزهم إلى أقسام تجمع بين الأدب المقارن والدراسات الثقافية. وبهدف إطلاع الأساتذة العرب على التحولات التي طرأت على هذا الحقل من فروع الدراسات الإنسانية في العالم الحقنا بهذه الدراسة ترجمة لثلاثة تقديمات لثلاثة من تلك الأقسام وهي مركز الأدب المقارن والدراسات الثقافية بجامعة موناش (Monash) في استراليا، وبرنامج الماجستير في الأدب المقارن والدراسات الثقافية في كلية العلوم الإنسانية بجامعة ليمرك في إيرلاندا، وقسم الدراسات الثقافية والأدب المقارن بجامعة مينيسوتا في الولايات المتحدة الأمريكية.وإذا كان هناك كثير من الأساتذة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأقطار أمريكا اللاتينية قد ساروا في الطريق نفسه الذي اختاره ستيفن توتوسي دي زبتنك للأدب المقارن وسارعوا في تحويل أقسام الأدب المقارن في جامعاتهم إلى أقسام للدراسات الثقافية المقارنة، أو النقد الثقافي المقارن، فهناك بالمقابل العديد من المقارنين الذين يرون أن تغيير الأدب المقارن إلى دراسات ثقافية مقارنة يؤدي إلى ضياع استقلالية الأدب المقارن ويلحقه بالدراسات الثقافية. فتومو فيرك، أستاذ الأدب المقارن في جامعة ليوبليانا في سلوفانيا، مثلا، يؤكد في دراسة له بعنوان (الأدب المقارن في مواجهة الدراسات الثقافية المقارنة، إن مشروع توتوسي قد أفرغ الأدب المقارن من طبيعته الأدبية، إذ أن توتوسي قد اكتفى بتحويل كلمة أدب إلى ثقافة ليجعل من المبادئ التي وضعها لتحديث الأدب المقارن أسسا للدراسات الثقافية المقارنة. وبالإضافة إلى ذلك يؤكد فيرك أن الأبحاث التي قام بها توتوسي في إطار ما يسميه بالدراسات الثقافية المقارنة تدخل كلها في الواقع ضمن ميادين البحث في الأدب المقارن[١٦] وفي بعض الأحيان قوبلت أطروحات توتوسي بكثير من التحفظات حتى من قبل "السياقيين"، الذين يخشون وقوع الدراسات الأدبية مرة أخرى في فخ الإنشائية والانطباعية. ومن المعلوم أن اقتراح توتوسى باستخدام طرق التحليل التجريبية الخاصة بالعلوم الطبيعية لدراسة الأدب والثقافة كان يهدف إلى تجنب الوقوع في مثل ذلك الخطر. إلا أن السياقيين ودارسي الأدب والعلوم الإنسانية بشكل عام يدركون أن علومهم تتطلب جهدا منهجيا وتحليليا مميزا ومختلفا عما تتطلبه العلوم الطبيعية.وهناك فريق ثالث قبل بشيء من التحفظ انفتاح الأدب المقارن على الدراسات الثقافية. ويتجلى موقف هذا الفريق في رأي الأستاذ الصيني كاو شونجينج (Cao Shunging)، من قسم الأدب المقارن في جامعة سشيوان (Sichuan)، الذي كتب أن "فتح أبواب الأدب المقارن أمام الدراسات الثقافية دون رقيب سيؤدي إلى تدهور الأدب المقارن. لكنى حينما أقول هذا فأنا لا أقصد استبعاد دراسة الثقافة؛ فالأدب المقارن يرتبط بالدراسات الثقافية، لكن مثل هذه العلاقة ينبغي أن تعمل على تعميق الأدب المقارن. وفي رأيي يمكن أن يتم خلال جعله يركز على دراسات التثاقف أو المثاقفة (Cross–culture study)، لاسيما من خلال الاهتمام بظاهرة المثاقفة بين الشرق والغرب".[١٧]

ثانيا: تحولات الأدب المقارن عربيا:عربيا، نجد صدى لهذه التساؤلات في دراسة عن الأدب المقارن في عصر العولمة، يقول فيها الدكتور حسام الخطيب: يستقبل الأدب المقارن القرن الحادي والعشرين قرن العولمة بتساؤلات ومجادلات صاخبة حول تحديد منهجه ومنطقه ومستقبله وأدوات بحثه وعلاقاته بالأنظمة الأخرى، ولا يكاد يضاهيه في ذلك أي نظام معرفي آخر، في دنيا العلوم الإنسانية بوجه خاص، ودنيا العلوم بوجه عام. وقد يرجع ذلك إلى حداثة هذا النظام وتفجر الخلافات والنزاعات في داخله وحوله من قبل أن يبلغ رشده ويشتد أزره ولكن قد يكون ذلك ناجما أيضا عن طبيعة امتداداته المنهجية والمعرفية إلى مختلف أشكال المعرفة المعاصرة، بحيث تهتز جذوره وأغصانه بقوة مع الاهتزازات الكبرى التي تتعرض لها الأنظمة المجاورة له عضويا ولاسيما النقد الأدبي ونظرية الأدب"[١٨].ومن اللافت للانتباه حقا أن تلك التساؤلات التي طرحت حول الأدب المقارن قد تزامنت مع ازدهار الدراسات الثقافية التي يطلق عليها عربيا النقد الثقافي لاسيما في الجامعات الأمريكية. وقد نبه د. حسام

الخطيب إلى أن النقد الثقافي يمكن أن يعد أحد الأنظمة المنافسة للأدب المقارن. فهو يؤكد أنه "لا ينبغي عدم الاستهانة بالمخاطر التي تهدد استمرار الأدب المقارن من خارج البيت المقارني. إذ تشير الدلائل إلى أنه سيبقى عرضة لموجات متعاقبة من المنافسة تطلقها أنظمة تتقاطع معه في المنطق والمنطقة بعضها قديم متأصل متمكن مثل نظرية الأدب، وبعضها حديث متوثب مثل الدراسات الثقافية والدراسات الترجمية، وبعضها حديث متعدد الأنظمة ومتشعب الاهتمامات وعريض الادعاءات بحيث ينطلق من منطلقات معرفية وسوسيولوجية أوسع بكثير من منطلقات الأدب المقارن والنظام الأدبي بوجه عام، مثل النقد البنيوي، وما بعد البنيوية، والسيميائيات، ونظريات ما بعد الحداثة على اختلاف فيما بينها"[١٩].وحسب علمنا لم يتم حتى الآن تبني أطروحات الدراسات الثقافية المقارنة بين أساتذة الأدب المقارن في معظم الجامعات العربية. ومع ذلك يمكننا أن نلمس اهتمام بعض هؤلاء الأساتذة بهذه الدراسات وما يعتمل بشأنها في الغرب. فعز الدين المناصر، أستاذ الأدب والمقارن في جامعة فيلادلفيا الأردنية، ومؤلف كتاب المثاقفة والأدب المقارن يبدأ دراسته عن إدوارد سعيد والنقد الثقافي المقارن، مجلة فصول، بطرح إشكالات النقد المقارن والنقد الثقافي المقارن وعلم النص ومدى حرية الناقد في الانتقال من قراءة النص من الداخل إلى قراءته من الخارج، أي وضع النص ضمن مختلف المكونات الثقافية للسياق الذي أنتجه، وذلك قبل أن يتناول الملامح المنهجية لكتابات إدوارد سعيد ويحدد موقعه بين المنهج الأمريكي الذي يعتمد أسلوب التوازي في قراءة التشابهات وبين المنهج الفرنسي التقليدي. كما يستعرض د. عز الدين المناصرة طريقة استخدام إدوارد سعيد لبعض المصطلحات التي تجمع بين الأدب المقارن والنقد الثقافي مثل التمثيل والتهجين وسلطة النسب وسلطة الانتساب والنظرية النازحة. وفي شهر أغسطس ٢٠٠٤ أصدر عز الدين المناصرة كتابا جديدا بعنوان الهويات والتعددية اللغوية قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن) ضمنه خمس دراسات عن الفرانكفونية وثلاث من الأقليات التي تعيش الوطن العربي[٢٠] وفي نهاية عام ٢٠٠٤ ، أصدرت الأستاذة المصرية ماري تريز كتاباً في الأدب المقارن يحمل عنوان (قراءة الأدب عبر الثقافات، ويضم مجموعة من الدراسات يقترب بعضها من كتابات إدوارد سعيد حول قضايا الهوية وتمثيل الآخر. ففي الفصل السابع من الكتاب تتناول المؤلفة مسألة الهوية والعلاقة بين فعل التخيل وتشكل الهوية وبين كتابة النص الأدبي، وذلك من خلال تحليلها لروايتين؛ الأولي هي (ذات) لصنع الله إبراهيم والثانية لما نحن منعمون كتبها باللغة الإنجليزية لأي كوي ارماه. ومن خلال عرض العلاقة الحوارية بين ثلاث شخصيات مودين الأفريقي وصديقته الأميركية إيمي والراوي تتكشف أمامنا إشكالية الهوية بين الأفارقة الذين لا يكتشفون ذواتهم إلا من خلال اتصالهم بالآخر. وفي دراسة حول التمثيل المرئي للإسكندرية بين منعطف قرنين)، تقوم ماري تريز بقراءة عدد من الأعمال التصويرية المستوحاة من موقع الإسكندرية الثقافي وذلك لترصد كيفية تمثل عدد من الفنانين الغربيين (والمصريين) لمدينتها الإسكندرية. فهي ترى أنه لإعادة صياغة الهوية ينبغي مقاربة الذات بوصفها نقطة التلاحم بين الهوية والاختلاف فالتعرف على الذات هو وعي بالآخر الذي تحتويه، والوعي بالأوجه المتعددة للثقافة التي تشكلها، فالفهم الذاتي يتطلب الابتعاد عن الذات لتجاوز المحلية المطلقة، كما يفضي إلى تجاوز المصادمات مع خطاب الاستشراق وإتاحة الفرصة لإنماء خطاب يتجاوز الحدود الفاصلة بين الثقافات".[٢١]وبالمقابل، يبدو لنا أن الدكتور حسام الخطيب، أستاذ الأدب المقارن، قد عبر عن شيء من التحفظ فيما يتعلق بالربط بين دراسات النقد الثقافي وبين الأدب المقارن. فهو يرى أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى مسخ هوية الأدب المقارن. ويقول في كتابه الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة): "الملاحظ أن الجيل الجديد نسبيا هو الذي يحمل لواء المعارضة للأدب المقارن ويحاول إما إبداله وإزاحته من قائمة معارف المستقبل، وإما تقزيمه وإتباعه للأنظمة المشرئبة كالدراسات الثقافية أو الأنثوية أو الترجمية، وإما – في أحسن الحالات – فتح أبوابه لكل أشكال المقارنات دون شروط حدود، مما يهدد بضياع شخصيته".[٢٢]ومثل عدد من المقارنين الغربيين يربط الأستاذ حسام الخطيب الأزمة الثانية للأدب المقارن بازدهار الدراسات الثقافية التي يرى فيها أحد الأنظمة المنافسة للأدب المقارن. وأكد أنه "لا ينبغي الاستهانة بالمخاطر التي تهدد استمرار الأدب المقارن من خارج البيت المقارني، إذ تشير الدلائل إلى أنه سيبقى عرضة لموجات متعاقبة من المنافسة تطلقها أنظمة تتقاطع معه في المنطق والمنطقة، بعضها قديم متأصل متمكن مثل نظرية الأدب، وبعضها حديث متوثب مثل الدراسات الثقافية والدراسات الترجمية، وبعضها حديث متعدد الأنظمة ومتشعب الاهتمامات وعريض الادعاءات بحيث ينطلق من منطلقات معرفية وسوسيولوجية أوسع بكثير من منطلقات الأدب المقارن والنظام الأدبي بوجه عام مثل النقد البنيوي، وما بعد البنيوية[٢٣]، والسيميائيات[٢٤]، ونظريات ما بعد الحداثة على اختلاف فيما بينها".[٢٥]وإذا كان د. حسام الخطيب يلاحظ أن هناك انحسارا نسبيا في عدد الباحثين المتحمسين حقيقة لنظام الأدب المقارن والراغبين في دخول مناقشات لتوضيح جدواه وافاقه المستقبلية على نحو ما فتئ هنري رماك ينادي به طوال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين"، فهو يرصد في الوقت نفسه ظهور "نصوص تبشيرية في الأدب المقارن مثل دفاع فرانسوا جوست المتألق عن الأدب المقارن". ويلاحظ كذلك "أن الأدب المقارن اليوم يتمتع أفقيا باهتمام متزايد ليس في الغرب فحسب ولكن أيضا في مناطق أخرى مختلفة من العالم، ولاسيما في الصين واليابان والوطن العربي، على مستوى المؤسسات الجامعية وربما أيضا في حقل النشاط الأدبي العام. ويبدو

أن تطورات العولمة المقبلة ستحمل للأدب المقارن تحديات جديدة وفرصا متجددة، يؤمل أن يتضح تأويلها في النقلة التالية. وبعكس بعض المتشائمين يرى الخطيب أن محصول الإنتاج المقارني التطبيقي الذي نشر خلال العقد الأخير من القرن العشرين بوجه خاص يوحي بانتعاش فائق " .[٢٦]وهذا لا يعني أن الأستاذ حسام الخطيب يرفض أن يكون للأدب المقارن بعدا ثقافيا إنسانيا عاما، فالعكس هو الصحيح، إذ أنه حين يحدد المهمات المستقبلية للأدب المقارن يقترب كثيرا من طروحات توتوسي الخاصة بميادين البحث التي تتناولها الدراسات الثقافية المقارنة. فهو يؤكد ضرورة انتقال الأدب المقارن من المناخ الأدبي إلى المناخ الثقافي العام". ويرى أنه يحسن بالأدب المقارن إظهار مزيد من الاهتمام بالقضايا الإنسانية الكبرى التي تشغل ساحة الدراسات الأدبية الجديدة مثل مضاعفة التصدي للمركزية الأوروبية والغربية وحليفتها الهيمنة الأمريكية المتصاعدة في القرن الحادي والعشرين)، والتخلص من امتدادات الكولونيالية، والسبق إلى الإسهام في بناء مسار سليم لموجة العولمة الثقافية المشرنبة، ومكافحة التمييز العنصري الثقافي بكل أشكاله وتمثلاته، والحيلولة دون انقسام العالم ثقافيا إلى طبقة فائقة الغنى والموارد، ومقابلها طبقة مدقعة تحت حزام الفقر، كما هو منتظر. ويتبع ذلك تأكيد التواصل العالمي وكشف الغطاء عن الثقافات المقموعة وتهوية تجاربها، والإفادة من جميع ثقافات العالم في شتى أنحائه من أجل إغناء الفكر الإنساني، ويصعب اتهام الأدب المقارن بأنه مقصر في هذا المجال ولكن يصعب كذلك اعتباره رائدا. والمطلوب من الأدب المقارن أن لا يكون أقل من الأنساق الأدبية الأخرى تركيزا على هذه الموضوعات الإنسانية المعاصرة".[٢٧] وبعد هذا العرض ألا يحق لنا أن نتساءل هل الخلاف بين ستيفن توتوسي ومعارضيه يكمن في التسمية فقط؟ فعمليا يبدو أن معظم الجامعات العربية، التي تعاني في الغالب من غياب الأساتذة المتخصصين في الأدب المقارن ناهيك في الدراسات الثقافية، لم تتجه بعد نحو عملية المزج بين الأدب المقارن والدراسات الثقافية. ويستثنى من ذلك جامعة بيت لحم الفلسطينية، ففيها تتضمن خطة دائرة الدراسات الإنسانية في كلية الآداب مساقات مختلفة بينها الدراسات الثقافية. ولم نعثر على أي برنامج شبيه، على الرغم من صدور عدد من الكتب العربية التي تبين رغبة عدد من النقاد العرب في المزج بين الأدب المقارن والدراسات الثقافية. ومن أبرز تلك الكتب النقد الثقافي المقارن) لعز الدين المناصرة، وكتاب حفناوي بعلي مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن).

الخاتمة والنتائج

تختتم المقالة بتناول الأزمات والتحديات التي مر بها الأدب المقارن نتيجة للتغيرات الجذرية التي شهدها العالم في ظل العولمة وتزايد التفاعل الثقافي بين الأمم. وتبرز أهمية إعادة النظر في مناهج هذا التخصص الأكاديمي لتواكب التحولات المعرفية والمنهجية التي فرضتها التطورات الحديثة، خاصة مع صعود مجالات أكاديمية جديدة مثل الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الاستعمار، والتي باتت تنافس الأدب المقارن في العديد من الأبحاث والموضوعات.تشير النتائج إلى أن الأدب المقارن، رغم ما يواجهه من صعوبات، لا يزال يمتلك القدرة على الاستمرار والتجدد، خاصة إذا تم توسيع نطاق البحث فيه ليشمل قضايا جديدة مثل الهوية الثقافية، المثاقفة، والتفاعل مع الآخر. وقد أثبت الأدب المقارن قدرته على التكيف مع التغيرات التاريخية والتطورات التكنولوجية، حيث أنه بات يتعامل مع مواضيع معاصرة مثل الاستشراق، الترجمة، والدراسات المتعلقة بالصورة والميدياعربياً، تواجه الجامعات والمؤسسات الأكاديمية تحديات كبيرة في تحديث مناهج الأدب المقارن لتواكب التحولات العالمية. وقد دعا عدد من الباحثين العرب إلى مراجعة جادة للمناهج المتبعة وتطويرها بما يتناسب مع متطلبات العصر، خاصة في ظل التداخل الثقافي المتزايد. وتأتي هذه الدعوات في إطار الحفاظ على هوية الأدب المقارن كحقل أكاديمي مستقل، مع التأكيد على ضرورة انفتاحه على المجالات الأخرى لتحقيق فهم أعمق وأكثر شمولية للتجربة الإنسانية عبر الأدب.

المصادر:

١. جيرار لكلرك، العولمة الثقافية، ترجمة مي الشرابي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠١.

٢. عوني محمد العلوي، موسوعة الموارد الثقافية، دار الثقافة العربية، بيروت، ١٩٩٩.

٣. أحمد مصطفى، سنغافورة الجزيرة الفاضلة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥.

٤. خليل برويني، الأدب المقارن، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧.

٥. مديحة عتيق، ما بعد الكولونيالية: مفهومها، أعلامها، أطروحاتها، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤.

٦. الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

٧. بتول مشكين فام، البحث الأدبي: مناهجه ومصادره، دار العلم، طهران، ٢٠١٠.

٨. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الرباط، ٢٠٠٢.

٩. أحمد درويش، نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٥.
١٠. حسام الخطيب، الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠١.
١١. عز الدين المناصرة، الهويات والتعددية اللغوية: قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤.
١٢. ماري تريز عبد المسيح، "التمثيل المرئي للإسكندرية بين منعطف قرنين"، مجلة نزوى، العدد ٢٧، ٢٠٠١.
١٣. جان بياجية، البنيوية، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٦.
١٤. سعيد بنغراد، السيميائيات: النشأة والموضوع، مجلة عالم الفكر، العدد ٣، المجلد ٣٥، يناير–مارس ٢٠٠٧.

15. Steven Tötösy de Zepetnek, Comparative Literature and (١) Cultural Studies, Amsterdam-Atlanta, GA: Rodopi, .١٩٩٤
16. Susan Bassnett, Comparative Literature, Introduction, Blackwell, Oxford, .١٩٩٣
17. Steven Tötösy de Zepetnek, "From Comparative Literature Today Toward Comparative Cultural Studies," CLCWeb: Comparative Literature and Culture: A WWWeb Journal, .(١٩٩٩) ١,٣
18. Steven Tötösy de Zepetnek, Comparative Method, Application, Amsterdam-Atlanta, GA: Rodopi, .١٩٩٨
19. Tomo Virk, "Comparative Literature versus Comparative (A) Cultural Studies," translated from the Slovenian by K. J. Kozak .
20. Cao Shunging, "Cross-Culture, a New Change and Breakthrough of Comparative Literature," Sichuan University, .١٩٩٩

هوامش البحث

[١] – جيرار لكلرك، العولمة الثقافية، ص١٤٣.

[٢] – عوني محمد العلوي، موسوعة الموارد الثقافية، ص١١١–١١٢.

[٣] – أحمد مصطفى، سنغافورة الجزيرة الفاضلة، ص٩٣.

[٤] – خليل بروييني، الأدب المقارن، ص٣١.

[٥] – الاستعمارية أو الكولونيالية (بالإنجليزية: Colonialism) هي ممارسة أو سياسة للسيطرة على أشخاص أو مناطق أخرى من قبل شعب محدد أو سلطة ما، غالبًا عبر إنشاء المستعمرات، وبهدف الهيمنة الاقتصادية. وفي عملية الاستعمار، قد يفرض المستعمر دينه ولغته واقتصاده وممارساته الثقافية الأخرى. ويحكم المسؤولون الأجانب المنطقة سعيًا وراء مصالحهم، وذلك للاستفادة من موارد وشعوب المنطقة المستعمَرة. مديحة عتيق، ما بعد الكولونيالية: مفهومها، أعلامها، أطروحاتها، ص٢٢٧.

[٦] – الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه، ص٥٣–٥٥.

[٧] – الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه، ص٢٩.

[٨] – بتول مشكين فام، البحث الأدبى: مناهجه ومصادره، ص٧٧–٧٨.

[9] – Tötösy de Zepetnek, Steven.: "Comparative Literature and (1) Cultural Studies", Amsterdam–Atlanta, GA: Rodopi, 1994.

[10] – Susan Bassnett: Comparative Literature, introduction, Blakweel. Oxford 1993, p.156

[١١] – سوزان باسنيت، الأدب المقارن مقدمة نقدية، ترجمة أميرة حسن نويرة، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٨١.

[12] – Tötösy de Zepetnek, Steven. "From Comparative Literature.

Today toward Comparative Cultural Studies." CLCWeb: Comparative Literature and Culture: A WWWeb Journal 1.3.

(1999): <http:,,clcwebjournal.lib.purdue.edu,clcweb99– 3,totosy99.html>.

[١٣] – د. عبد الله الغذامي النقد الثقافي المركز العربي الرباط ٢٠٠٢ ، ص ٧٦.

[14] – Tötösy de Zepetnek, Steven. Comparative Method, Application. Amsterdam– Atlanta, GA: Rodopi, 1998.

[١٥] – نفس المصدر.

[16] – Tomo Virk, Comparative Literature versus Comparative (A) Cultural studies, translated from the Slovenian by k. J. Kozak,

[17] – 9,virk.html>. Cao Shunging. Cross-Culture, a New Change and BreakThroygh of Comparative Literature, Sichuan University, 1999, p. 223.

[١٨] – أحمد درويش، نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، ص١٢٤.

[١٩] – د. حسام الخطيب: الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة، ص٢٧٨-٢٧٩.

[٢٠] – د. عز الدين المناصرة: الهويات والتعددية اللغوية قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٤.

[٢١] – د. ماري تريز عبد المسيح التمثيل المرئي للإسكندرية بين منعطف قرنين في مجلة (نزوى)، العدد ٢٧، ص ٣٣-٢١.

[٢٢] – د. حسام الخطيب الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الدوحة، ٢٠٠١، ص ٢٧٩-٢٧٨.

[٢٣] – البنيوية هي منهج فكري يركز على دراسة الأنظمة والعلاقات بين العناصر داخل هذه الأنظمة بدلاً من التركيز على العناصر الفردية. تُستخدم في مجالات مختلفة مثل الأدب، والأنثروبولوجيا، وعلم اللغة لفهم كيفية تكوين المعاني من خلال الهياكل الكامنة. جان بياجية، البنيوية، ص٧.

[٢٤] – السيميائيات هي دراسة العلامات والرموز ومعانيها في التواصل. تهتم بكيفية إنتاج المعاني وفهمها من خلال الإشارات، سواء كانت لغوية، بصرية، أو غيرها. سعيد بنغراد، السيميائيات النشأة والموضوع، عالم الفكر، العدد ٣ المجلد ٣٥ ، يناير_ مارس ٢٠٠٧، ص ٨.

[٢٥] – د. حسام الخطيب: الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

[٢٦] – نفس المصدر، ص ٢٨١.

[٢٧] – نفس المصدر، ص ٢٩٤.